

6

قصص الصحابة

الصحابي
الشجاع

سلوى العناني

دار اللطائف
للطباعة والنشر

الصحابي التتجاع

(عبد الله بن رواحة)

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ضربة ذات فرع تذف الزبد
عبد الله بن رواحة

هذا يومٌ وقفَ التاريخُ عنَّه متأملاً .. فقد كان بدايةً تحولٍ
مؤشِّرٍ (المواقع) ليقفَ عند موقعٍ جديدٍ غيرِ الذي طُلما
وقفَ عنده في شبه الجزيرة العربية .. وكان هذا في عام 621
ميلادية .. في هذا اليوم جاء اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب
للقاء النبي عليه السلام .. وكان اللقاءُ على مشارفِ مكة في
مكانٍ يُسمى (العقبة) .

يومها جلسَ النبيُّ مع هؤلاء يُجيبُ على أسئلتهم
ويبصِّرُهُم بحقيقةِ الدينِ الذي جاء به .. استمعوا إليه وقد
تفتحت قلوبُهُم لدعوته فملاها النورُ .. فبايعوه ..

على أي شيء بايعوه .. بايعوه على ألا يُشركَ أحدهم بالله
شيئاً .. ولا يَسْرِقَ ولا يزني ولا يقتلُ أولاده ولا يأتي بيهتانٍ
يفترية من بين يديه ولا رجليه ولا يعصي الله في معروفٍ .

كان من بين هذا الوفد القادم من يثرب شابٌ وسيمٌ

تبدو عليه ملامح الرُعاة .. أطل النظرَ إلى وجه النبي وكأنه
يتمنى أن يحتفظ بقسماته في ذاكرته وقلبه .. ابتسم ابتسامة
المؤمن المصنق الموافق على ما سمع ثم توجه بالسؤال إلى
الرسول فقل :

- يا رسول الله اشترطُ لربِّك ولنفسك ما شئت .

فقل عليه السلام : "أشترطُ لربِّي أن تعبدوه ولا
تُشركوا به شيئاً واشترطُ لنفسي أن تمنعوني عما تمنعون منه
أنفسكم" .

قل (عبدُ الله بن رواحة) : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟

قل عليه السلام : الجنة ..

هنا تهللتُ وجوهُ الوفدِ كله وصاحوا معا : "رَبِّعَ البَيْعُ ..
لا نُقِيلُ ولا نُسْقِلُ .." بعدما نزلَ قولُ الله تعالى :

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِذَا
عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الثَّوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بَالِغَتْ بِهِ وَذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة : 111] .

هكذا كانت البداية .. بداية الرحلة التورانية التي سار

(عبدُ الله ابن رواحة) على خطواتها في ثقة الفارسي وصدق
الشاعر وثبات المؤمن ..

كانت بيعةُ العقبة الأولى هذه تضم اثني عشر رجلاً ..
أما العقبةُ الثانية - في العام التالي - فقد ضمت خمسة
وسبعين مُسْلِماً منهم امرأتان ..

وهكذا كان بدءُ التفكير في هجرة النبي عليه السلام إلى
يثربَ وبدأ الإعداد لهذه الهجرة التي حولت مؤشراً (المواقع)
من مكة إلى المدينة كما قلنا في بداية حديثنا ..

وتجمع المسلمون عند مداخل المدينة يستقبلون نبيهم
ورسولهم بالفرحة والسعادة .. مع أمنية عزيزة كانت ترقدُ
في صدر كلٍّ منهم هي أن يحظى بدخول النبي بيته فيكون
ضيافته ..

وتقدم عبدُ الله بن رواحة وأمسك بِرِمْزِ (القَصْوَاء) ناقية
النبي وقال له : إني يا رسول الله حيث العزُّ والمنعة . إلا أن
الرسول شكره وقال له كما قل لكل من تقدم إليه طالبا
هذا الشرف .. قل : (اتركوها فإنها مأمورة) .

وتبعه (ابن رواحة) برفقة النبي عليه السلام .. يلازمه
وسمع منه .. يصلي خلفه ويحفظ ما ينزل عليه من القرآن ..

كان (عبد الله بن رواحة) شاعراً مشهوراً له بين
العرب .. وما إن دخل الإسلام قلبه حتى وظّف موهبته هذه
الحكمة دينه والدفاع عن نبيه .. ومن جميل شعره ..

إِن تَقَرُّنْتُ فِيكَ الْحَيْرَ أَعْرِفْهُ فِرَاسَةً خَالَفَتْهُمْ فِي الَّذِي نَظَرُوا
وَلَوْ سَأَلْتُ أَوْ اسْتَصْرْتُ بَعْضَهُمْ وَاللَّهُ يَغْلُمُ أَنَّ مَا عَانَى الْبَصَرُ
أَلَّتِ النَّيْءُ وَمَنْ يُخْرِجَ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ فَقَدْ أَرَزَى بِهِ الْقَدْرُ
فَلَمَّا سَمِعَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ هَذَا الْقَوْلَ .. أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ
مَبْتَسِماً عَلَى ابْنِ رَوَاحَةَ وَقَالَ : (وَايَاكَ فَتُبْتَ اللَّهُ) .

وتوالى قصائد (عبد الله بن رواحة) خاصة بعد هذه
الدعوة العظيمة التي دَعَا النَّبِيُّ ﷺ لَهَا بِهَا إِلَى أَنْ نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ
تَعَالَى : {وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} فامتنع عن قول الشعر
وقال: (وقد علم الله أنني منهم) . واستمرت مقاطعة ابن
رواحَةَ للشعر حتى بعد أن نزل قوله تعالى : {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ غَدَابَةٍ
مَّا ظَلَمُوا وَاسْتَقْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}

[الشعراء : 227]

خرج (عبد الله بن رواحة) يوماً مع النَّبِيِّ ﷺ - عليه السلام -

وأصحابه في سَفَرٍ طَوِيلٍ .. وبينما هم في الطريق قال له
النبي : "انزل فحَرِّكْ بنا الركب" أي قُلْ شعرا ينبه الناسَ
ويطرد عنهم كسلهم فيستحثون بدورهم الدواب لتسرع
في سيرها .

فلجابه (ابن رواحة) : يا رسول الله .. إني قد تركت قلبي
هذا.. أي تركت قول الشعر .. فغضب (عمرُ بن الخطَّاب)
وصاح فيه : اسمع وأطع .

وفاضت قريحته (ابن رواحة) طاعةً لرسول الله ..

يا ربُّ لولا أنتَ ما احتدنا ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكيناً علينا وكُتَّ الأقدام إن لاقينا

إن الكفارَ قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فلما استمع النبي لإنشاده دعا له قائلا : "اللهم ارحمه" ..

وهكذا وَجِبَتْ الرحمةُ المطلقَةُ .. أو قل (الجنة) لهذا

الفارس الشاعر النبيل ..

تروى الكتبُ التي تؤرخ لصدر الإسلام هذه الرواية عن

(ابن رواحة) ، فقد صاحب (عبد الله بن رواحة) النبي في

عمرة القضاء وكان يُسمِّكُ بِزِمَامٍ (القصواء) ناقة النبي

الذي كان يسيرُ خلفه المسلمون مهللين مكبرين قرحين

مزمارة يسبح الله الحرام .. وانفعل ابن رواحة بالوقوف
وفاضت شاعريته فانطلق يقول :

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ مَعَ رَسُولِهِ
غَنَ ضَرْبَانَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا ضَرْبَانَاكُمْ عَلَى تَسْوِيلِهِ
ضَرْبًا يَزُولُ الْهَامُ عَنْ قَفِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ عَلَيْهِ

وأثارت هذه الأبيات مشاعر بعض المسلمين وتحركت في
داخلهم نوازع الحرب .. لكن هذا يخالفُ بنوَّةَ (صلح
الحديبية) .. وتنبه (عمرُ بن الخطاب) فنبه (ابن رواحة) إلى
هذا .. وسمع النبي ما يدورُ من حوله فأنجه بالحديث إلى (ابن
رواحه) قائلا: "إيه يا ابن رواحة .. قل : لا إله إلا الله وحده ،
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَتَصَرَّ عَيْلَتَهُ ، وَأَعَزَّ جُنَّتَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ
وَحَدَّهْ ."

وانطلقت حنجرةُ (ابن رواحة) رافعة ما قاله الرسول ..
فتبعه باقي المسلمين .. وأصبح هذا النداء هو نداء المسلمين
يرددونه قبل صلاة العيدين تأسيا بملابسهم ونيبهم ورسولهم
عليه الصلاة والسلام :

وكما كان (عبد الله بن رواحة) شاعرا تتناقل الصحاري
والوديان أبيات شعره .. فقد كان فارسا مقاتلا تشهد له

ساعاتُ القتل بالقوة والشجاعة والذكاء العسكري .. وكان من القلائل في مجتمعه الذين أمسكوا القلم ليكتبوا فوق الصفحات .. لكن التاريخ سجل مفاخر ما قدمت يمنه من الدفاع عن الإسلام ونبيه في مواقع بدر وأحُد والحندق ومؤتة. وكان فوق هذا وذاك رجلا حكيما ذكي الحوار قوي الحجة ..

خرج رسولُ الله يوما لزيارة أحد صحابته - وكان مريضا - ومعه (أسامةُ بن زيد) و(عبد الله بن رواحة) وعند آخر من الصحابة .. وفي طريقهم شاهدوا (عبد الله بن أبي) - زعيم المنافقين - يجلس مع بعض رفاقه .. ولأن النبي كان نموذجاً للذوق الرفيع والخلق الحسن فقد نزل عن راحلته وراح يُسلم على هؤلاء الذين يفترض أنهم مسلمون وكعادته رَتل النبي بعضَ القرآن ودعا إلى الله أملا في حُسن الثواب ، وما إن انتهى الرسول من حديثه حتى قل له (ابن أبي) :

- يا هذا .. إنه لأحسن من حديثك هذا - إن كان حقا -
أن تجلس في بيتك فمن جارك فحدثه إياه .. ومن لم يأتك فلا تعذبه به ولا تأتَه في مجلسه بما يكره .



وشار رفاق النبي وصحابته لهذه الصفاقة التي تحدث بها
(ابن أبي) وشهروا أسلحتهم يتقدمهم (عبد الله بن
رواحه) الذي صاح قائلا:

- يا رسول الله .. إن الذي قلتَ هو الحق الذي لا يأتيه
الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ،
وإنه والله لأحب شيءٍ إلى نفوسنا وقلوبنا ، فاغشنا به ،
وانتنا به في مجالسنا ودروبنا وبيوتنا فهو - والله - ما نحِبُ
ومما أكرمنا الله به وهدانا بك

فمضى (عبد الله بن أبي) صامتا خائفا .. وما نظنه
خجلا .. فللنافقون لا يعرفون الخجل ..

ولتكن لنا هنا وقفةٌ عند محطةٍ هامةٍ في حياة الصحابي
الجليل (عبد الله بن رواحة) .. وهي غزوة مؤتة .. هذه
الغزوة التي شهدت استشهادَهُ ..

بدأ التفكيرُ في هذه الغزوة مع بداية العام الثامن
للهجرة (629) ميلادية .. بعد أن أيقن الرسول وصحبه
بضرورة تأمين الحدود الشمالية للجزيرة العربية بعد أن تم
تأمين الجنوب بولاء حاكم اليمن وإبرام المعاهدة مع
قريش .. وبعد أن ضمن انتشار الإسلام في أغلب أرجاء

الجزيرة .. أصبح لزأما فتحُ بابِ لهذا الانتشارِ خارجِ
الجزيرة .. وكانت الشامُ هي نقطةُ البدايةِ الاستراتيجية لهذا.
دعا الرسولُ عليه السلامُ إليه ثلاثةُ آلافِ مقاتلٍ من
المسلمين بقيادة (زَيْد بن حارثة) وقال لهم :

- إن أُصِيبَ (زَيْدُ) (فجعفَرُ بن أبي طالبٍ) على
الناسِ .. وإن أُصِيبَ (جعفرُ) (فعبد الله بن رواحة) على
الناسِ .. واتجه ابن رواحة لرسول الله يودّعه ويستزودُ منه
بالنصائحِ قل:

- يا رسول الله مُرّني بشيءٍ أحفظه عنك .

قل عليه الصلاة والسلامُ : إنك قادمٌ غداً بلدًا السجودُ
فيه قليلٌ .. فَأَكْثِرِ السجودَ .

قل عبد الله : زدني يا رسول الله .

قل : اذكر الله فإنه عَوْنٌ لك على ما تطلب .

فقام ابنُ رواحة إلى سبيله .. إلا أنه ما لَيْسَ أن عبادَ الله
رسول الله ليقولَ له: يا رسول الله .. إن الله وترٌ (*) يحب
الوتر.

وكان (عبد الله بن رواحة) يريد أن يَسْتَزِيدَ من حديث

الوتر : هو الرقيم المردى لا الودج .

رسول الله لأن قلبه يخبره بأنها ربما كانت المرة الأخيرة التي يلتقيان فيها ..

أجابه رسول الله : " يا بن رواحة ما عجزت فلا تعجزن إن أسأت عشرا .. أن تحسن واحدة " .

تملى (عبد الله) وجه النبي طويلا .. وقال وعلى وجهه طيف ابتسامة :

- لا أسالك عن شيء بعدها . ثم راح ينشد ..

ثبت الله ما أتاك من حسن نبيت موسى ونصرا كالأدى نصروا
إن تغرمت فبك الحيز أعرفه فإسأ خالقهم في الذي نظفروا
أنت الرسول لمن يخرم نوافله والوجه منه فقد أزدى به القدر
ومضى (عبد الله بن رواحة) .. لينضم إلى ركب
المجاهدين المتجهين إلى حدود الشام وكان من بين فرسان
هذه الحملة خالد بن الوليد .. الذي كان حديث عهد
بالإسلام فأراد أن يثبت ولاءه بانضمامه إلى هذا الجيش .

وقف المسلمون يودعون فرسانهم المجاهدين ويدعون لهم : (صاحبكم الله وقفع عنكم وردكم إلينا سالمين) ..

أما النبي - عليه السلام - فقد سار مع جنوده حتى حدود

المدينة المنورة ووقف يعظهم ويقول : (لا تقتلوا النساة ولا
الاطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ولا تهدموا المنازل ولا
تقطعوا الاشجار) .

ومضت الحملة في سبيلها وقد ظن قاداتها أنهم سيباغتون
الروم في الشام فيحصلون على نصر سريع وغنيمة .

لكنهم ما إن اقتربوا حتى تبين لهم أن (شرخيل) عامل
(هراقل) على الشام قد علم بقدومهم .. فجمع حوله
القبائل .. كما طلب المدد من (هراقل) .. فأرسل إليه جيشا
من الروم والعرب .

واقرب جيش المسلمين من أرض الشام .. وأرسلوا
عيونهم ترأب الموقف .. وعلموا أن جيشا قوامه مائة ألف
أو يزيد قد اجتمع للقائهم . واجتمع قادة المسلمين ينظرون
ماذا هم فاعلون .. اقترح البعض أن يرسلوا للنبي بعدد
عدوهم .. فهو إما يرسل لهم المدد اللازم .. أو يدعوهم
للعدة .. أو يأمرهم بالقتل .

هنا قام (عبد الله بن رواحة) وقد اجتمعت في داخله كل
معاني الإيمان والصديق والفروسية وحسب الشهادة .. فقل
لهم :

يا قوم: والله إن التي تكرهون للشي خرجكم تطلبون -
يقصد الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،
ولما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ،
فإنما هي إحدى الحسين ، إما ظهور وإما شهادة ..

وسرى تيار الإيمان والبسالة في جموع المسلمين .. وصلحوا
في صوت واحد .. فوالله صدق (ابن رواحة) ..

وعند قرية (مؤتة) التقى الجيشان .. جيش الروم بعلده
وعدته. وجيش المسلمين بإيمانه واستماته ..

وكان قتالا شرسا بين قوتين غير متكافئتين في العدد ..
قاتل (زيد بن حارثة) (حبيب رسول الله) وحامل راية
الإسلام قتالا مستميتا .. حتى استشهد ..

وتسلم منه الراية (جعفر بن أبي طالب) (ابن عم
الرسول) فقاتل بشراصة حتى استشهد ..

وأسرع (عبد الله بن رواحة) فحمل الراية ثم مضى
بصرع أعداءه وكأنه جيش بأكمله .. لكن .. هل تغلب
الشجاعة الكثرة .. كثرة العدد وكثرة السلاح والعدة؟؟

ولحق (ابن رواحة) بزميله .. لحق الأنصاري الهمام
بالمهاجرين البواسل .. ليلتضي ثلاثهم في جنة الخلد

محمولين على سررٍ من ذهب..

هكذا هو .. (عبد الله بن رواحة) مجاهدٌ في سبيل الله .
مُحيًا لدينه ولرسوله منذ اللحظة التي بايع فيها على نصرته
الإسلام في العقبة الأولى .. فأعطى هذه العقيدة التي آمن
بها كل ما يملك وما هو يعطيها أغلى وآخر ما يملك؟ ..
روحه الطاهرة ..

سلام عليك يا ابن رواحة مع الشهداء والصديقين
والأبرار.. لكن كيف انتهت هذه الموقعة - موقعة مؤتة -
بعد موت أمرائها الثلاثة واحدًا بعد الآخر ؟

بعد موت (ابن رواحة) ثالث هؤلاء الأمراء قرَّر
المجاهدون المسلمون اختيارَ (خالد بن الوليد) قائدًا وأميرًا
عليهم .. وكان خالدٌ كما هو معروف عنه واحدًا من
أصحاب العبقرية العسكرية الفذة .

نظر خالدٌ بن الوليد في الأمر .. ووجد أن عددًا كبيرًا من
مقاتلي المسلمين قد استشهدوا .. صحيحٌ أنهم أبلسوا بلاء
حسنًا وكبّدوا العدو خسائرَ كبيرةً .. لكن قوةَ هذا العدو
ما زالت قادرةً على الصمود ..

ولم يجد خالدُ أمامه إلا الحيلة .. فقد أمر قوةَ جيشه أن

تزوج في الخلف في خط عرضي على أن تتحرك الخيول
والإبل لتصنع عاصفة رملية عالية .. تحدث جَلْبَة ..

ولما رأت جنود الروم هذا ظنوا أن مَلَدًا جديدًا قد وَصَلَ
إلى المسلمين .. وخافوا من العودة إلى مواجهتهم فلووا
هالوين ..

وكانت فرصة لجيش المسلمين كي يعود بعد هذا البلاء
الحسن .. صحيح أن هذه الغزوة لم تحقق نصرا للمسلمين ..
لكنها في ذات الوقت لم تحقق نصراً لأعدائهم ..

وكانت (مؤتة) هي البداية .. وكان بعدها النصر في
(ذات السلاسل) ثم (تبوك) التي فتحت للإسلام شمل
الدُّنيا وغربها وشرقها!